العبـــقرية

علم وأدب وفن

للاستاذ الحومانى

أمامك ماتحسه فى الطبيعة كائنا ومكيناً من عظمة (١) وقفت عقولنا دون حدها أو تصورها ، فكنا أمامها ولا نزال حائرين لا الى الرشد كل الرشد فنتبين مصدرها ، ولا الى الجهل كل الجهل فنصدف عنها بطبعنا ، لان الحى لا يستطيع ان يفكر فيما وراء حياته ، فهو يريد ان يقيس ماخفى عنه على ما بدا له ، ولعل مايبدو له هو خلاف الحقيقة التى ينشدها من وراء مايحس اذ يمكن ان يكون ما يتراءى له اليوم حقيقة، ينكشف عنه الغد خيالا، نتيجة كذب فى حس أو خطأ فى فكر

وربما كان مايأتيه العقل فى يقظته ، وهو قيد الحواس ، حلما يبدو له بعد تحرره من رق هذه الحياة الدنيا فتكون نسبة مانأتيه اليوم الى ماندركه بعد الموت كنسبة مانأتيه فى الحلم الى ما ندركه فى اليقظة

فاذا ثبت لدينا ان فى الاثر لامحالة جزءاً من روح المؤثر ثبت بداهة ان فى هذه النفس جزءا من القوة المسيطرة على الكون أو القائمة به ضرورة انها (أى النفس) أحدى جزئياته الداخلة فى مفهوم كلياته

فالارادة كما يبدو لنا هى أولى خصائص النفس وقد كانت الكنز الاول فى خزانتها . ولكن هل هى الجزء الذى ينم على الفكرة التى ابتدعتها فى الكون ؟

قد تكون ذلك اذا ثبت لنا انها هى جماع مافى النفس من جمال ، ولكن انى لها ان تكون كذلك وليست هى المثل الاعلى فى الانسان بله الحيوان بداهة ان مناطها فى النفس حب البقاء والسيادة والاستمتاع ؟ فالمرء يريد بطبعه ألا يتناول من الخارج الا مايتصل ببقائه وسيطرته وأستمتاعه .

فاذا كان ذلك مناطها ورأينا ان الصلاح كثيرا مايكون فى كبتها وصدها عما تأتيه ، علمنا إذ ذاك ان المثل الاعلى فى النفس الذى يشير الى حكمة الصانع الاول هو غير الارادة

ثم اذا استعرضنا ماتاتيه هذه الارادة من عمل بعد تنفيذه أو فى طريق هذا التنفيذ ، نحس بشىء يشعرنا بصحة هذا العمل أو فساده . فما هو أذن ذلك الشىء الذى نشعر به فى انفسنا غير الارادة ؟

هل هو ذاتها ، فيصح كون الشىء ضدا لنفسه ، أم غيرها ، فيثبت لدينا ان الحى مركب من أرادة تفعل ، ونفس تفعل وتنفعل ، وشىء آخر يشرف عليهما، فيكون من الفعل والانفعال مثلا أعلى هو ذلك الجزء المنبعث من الحكمة المبدعة الاولى ؟

ثم على فرض وجود هذا الثالث ، فهل وجد مع النفس كالارادة ثم نماه فعل الارادة فى الخارج الى حد أصبح معه ذا سلطة عليها فى كثير من الاحيان ؟ أم هل تكون فى النفس من تصادم الارادات ضرورة بقاء المجموع ليضمن بقاء الفرد فيكون وجوده متأخرا ؟

وهذا إنما يتضح فى أجماع العقول الناضجة مثلا على استحسان أمر له علاقة فى بقاء المجموع واستقباح أمر آخر يتعلق بفساد المجتمع فيربى هذا الاجماع المستمر فى النفوس ملكة كبت الارادات والمحاكمة بينها فتكون هذه الملكة أم هذا الموجود الثالث الذى نسميه فكراً تارة ومعقولا تارة أخرى، ان صح تعاقب هذين اللفظين على معنى واحد كما سيمر بك

وعلى كلا الأمرين فانا نشعر ان فى ذواتنا نفوسا تتدافع وتتصادم فى الحياة فتحرك هذه القوالب بأمر من الأرادة ، أو تتحرك هى بارادة أخرى تتصادم وارادتها ، ذاتية كانت أو عرضية

ثم نشعر ان ضمن هذه النفوس أرادات تسيرها الى ماخلقت له طبعا (١) فهى تريدك على الطعام والشراب والمتعة ضرورة أن هذه من مقومات حياتك

ونشعر بعد ذلك ان هنالك مايستعرض هذه الأوامر الارادية ثم يعرضها على الحياة فيصل بها إما الى صلاح فيستمر معها وأما الى فساد فيصدها. ذلك هو الفكر قبل الحكم وهو يستعرض ويقيس ، وهو نفسه العقل والهوى بعد الحكم متسلطاً على الارادة أو خاضعاً لها

ومن الصعب جدا تحديد أى الثلاثة فى طريق تحديد الآخر منها لشدة تمازجها والصلات المتأصلة بينها .

وربما كان أصدق تأويل لها هو أن النفس (٢) انما هى الوسيلة الاولى لتنفيذ أوامر الارادة ، والاعضاء هى الوسيلة الثانية . على ان العقل هو الحاكم الاعلى المشرف على المجموع ، ينتهى الحكم عنده سلبا أو ايجابا

---

(١) مساق الكلام هنا فى معرض النداء على عظمة المكون عطفا على ماسبق من ان عظمة الصانع مقيسة على عظمة صنعه

(١) لايلزم من قولنا طبعا ان يكون ماتأمر به هو العلة لوجودها وحده ، فان الارادة لما خلقت وكان ماتأمر به ناقصا لان يكون علة تامة لها، سلط عليها العقل فكان ميلها مع تهذيبه هو علة لوجودها وذلك هو المثل الاعلى فتامل

(٢) النفس هنا هى الثانية المعبر عنها بنواة الحياة والتى مر بك تعريفها فى صدر المقال

فالارادة فى الطبع تأمر والعقل يوقع ، والنفس تنفذ مباشرة ، فى الداخل أو بواسطة الاعضاء فى الخارج . والنفس تنفرد دونهما فى النوم والجنون والاغماء ونحوها ، اذا صح ان لا إرادة للمجنون بناء على ان الارادة مناط امر النفس بما يعوزها طبعا لا اجتماعا ، والمجنون قد يفعل مايضره فى الطبع بله الاجتماع. فالارادة لا تحمل الحى انسانا كان أو حيوانا على أن يلقى بنفسه من شاهق كما يفعله المجنون أحيانا ، من أجل ذلك تتحقق فيه النفس دون الارادة والعقل .

وهكذا هى فى النائم دونهما ، اذا صح ان العقل الباطن الذى هو زعيم الاحلام ليس الا خيال العقل الظاهر الذى هو زعيم اليقظة وحقائقها كما أعتقد ، لا أنه حقيقة مستقلة تتكون من تجاريب العقل الظاهر التى اخفق معها فى حاضره أو ماضيه . ولكن العقل اليقظ المتخيل الذى ينتزع من الحقائق خيالا غريبا ينطبع خياله هذا فى مرآة النفس فيفعل فعله منتزعا من اخيلة الحقائق فى اليقظة أخيلة غريبة فى النوم : واذا لم يكن العقل الباطن هو نفس العقل الظاهر (١) يبدو ضعيفا لضعف مركزه العصبى المتأثر بالنوم الى حد يختل معه نظامه ، فيكون تناهى العقل بالحدة الى درجة التخيل المبتدع . وتناهيه بالضعف الى درجة خرافات الاحلام . وكلاهما ينتزع من بين حقيقتين أو حقائق خيالا مزعجا فى الحلم أو رائعا فى اليقظة ، وكما يصيب فى يقظته المغيبات أحيانا كذلك هو فى حلمه . . . إذا لم يكن كذلك فهو خياله المنطبع على مرآة النفس يتضاءل لبعده عن الحقيقة فيظهر مبتراً منقطعا .

وأما الارادة والعقل فملزومان للنفس لا انفراد لهما دونها ، فحيثما وجدت الارادة والعقل كانت النفس ولا عكس

ماذا وراء النفس بعد الارادة ؟؟

يقولون ان هنالك عقلا وفكراً وخاطراً وضميراً ، ان هنالك ذهنا وفطنة وذاكرة وذكاء ، ان هنالك شعورا وعاطفة وخيالا . وليست العبرة فى تعداد هذه الخصائص فى الانسان ولا فى نسبتها اليه ، وانما العبرة فى تحديد كل منها وبيان مايميزها من غيرها من الخلال ، ولغموض هذه الفروق نرى الكثيرين يخلطون فى الكلام عليها ، من أجل ذلك يجمل بنا قبل تحديدها أن نتمثل فيما يعرضها واضحة الحدود .

لنفرض أن لك صديقا حميما قد كثر غشيانك اياه فى منزله الذى يضمه واجمل فتاة قد اقترن بها ، وفى كل زيارة ينمو فى نفسك حب هذه الفتاة ، لما ترسل اليك من نظراتها الساحرة ويملأ نفسك من ورائها جمال نفس يفيض على فمها رقة وابتساما ، والى جانب هذا الحب تنمو فى نفسك صداقة الزوج لما يغمرك به من فضل واحسان الى رقة طبع ودماثة خلق ، وليس ماتربى فى نفسك من ولاء اخيك وحب فتاته بأقل مما يحمل الزوج لك من ولاء . وتشعر به الزوجة نحوك من غرام

تبادلتما هذا الحب وبدا لك جليا واضحا هيامها بك وشوقها لك من عينيها الشاخصتين اليك ونظرها المسبغ عليك ، ثم بدا لك أن تزور صديقك فى وقت كنت مضطراً معه الى أن تراه ، وكان هو مضطراً فيه الى أن يغادر مكانه ، فكنت والزوجة خليين فى منزل واحد وعلى مقعد واحد يناجى كل منكما الآخر بما يجول فى نفسه ، فيبدو جليا على عينه رقة وفى حديثه تقطعا ، وفى حركاته اضطرابا . ثم امتد الأمر بكما الى أن هم كلا كما بصاحبه فكانت هى أشد ثورة منك ، فأول ماتتحرك فيك الارادة والرغبة ، ولكنك قبل أن تنفذها أو تباشر تنفيذها تلحظ ما يحف بهذا العمل الذى اقدمت عليه بدافع قوة الارادة الحيوية ، تلحظ مايحف بهذا العمل - وهو اشباع نفسك من جمالها - من أمور خارجية منها مايدفعك اليه ومنها مايردعك عنه ، فمن الاول التمتع بالجمال الماثل أمامك والذى هو فى متناول يدك ، ثم أمان العاقبة وشيوع الامر المفضى بك الى العار ، ثم اشباع نفسها من جمالك لتأمن مكرها فيما اذا هى اخفقت منك

ومن الثانى — خيانة صديقك البار بك ، والتعدى على جمال ليس لك فيه حق ، وتشويه هذا الجمال بما تخفيه من دخيل داء

لابد من ملاحظتك هذه الامور واستعراضها جملة أو متفرقة فى زمن واحد أو ازمنة مختلفة تتخللها فترات قصيرة. فأى العوامل كان أقوى اثرا فى نفسك لقوته فى الخارج كانت له السيطرة عليك داخليا فكان قائدا لك .

فاما أن يكون الاول فيجذبك اليها وتلبث زمنا ما تعبث بجمالها والشهوات تقيمك وتقعدك بين يديها

وإما أن يكون الثانى فيصدك عنها وتخرج ناصع الجبين مطمئنا الى راحة الوجدان .

تجرى هذه المحاكمة بناء على سلامته بذلك واستقامة نظام الحياة فيك وإلا فلضعف الاعصاب . وهى بعض مراكز هذه الخصائص تأثير قوى فى صرف الارادة وتعضيدها . « يتبع »

---

(١) خذ الطفل مثالا لذلك فانه يعقل ولكن عقله ضعيف لضعف مركزه من الجسم ، من اجل ذلك تراه يتخيل الغريب من الصور كالحالم